ذكريات عامر

أرض صلبة صغيرة

كان احمد وعصام صديقين ما زالا في مقتبل العمر ، يسكنان معاً في غرفة واحدة في بيت صاحبته امرأة ، ميت زوجها . وجهها ليس قمراً ولكن جسدها مفعم بالانوثة . وكانت الغرفة تحتوي على سريرين ومنضدة خشبية وكرسي واحد. وكانت ثمة صور نساء، منتزعة من المجلات ، ملصقة على الجدران دون نظام .

وكان احمد وعصام مؤمنين ان الارض ليست كروية ، وقد تناقشا منذ الصباح حتى الظهر ، ولم يتمكنا من العثور على برهان مقنع .

وكانت الشمس تسطع بحدة خارج غرفتهما لحظة دنا احمد من النافذة ، وازاح ستارتها قليلا بحركة حذرة متوجسة ، وقال :

« صاحبة البيت بدأت تغسل » .

واسرع عصام نحو النافذة ، وطفق يختلس النظرات الى صاحبة البيت التي كانت تجلس في الباحة على مقعد قصير القوائم ، وامامها طبق معدني كبير ، تتصاعد منه ابخرة الماء الساخن وتتكوم فيه الثياب المبللة تجللها رغوة الصابون البيضاء .

وكانت صاحبة البيت تدندن باغنية ما وهي منهمكة في دعك الثياب وعصرها ثم وضعها في طبق آخر صغير بجانبها . وانحسر ثوبها بغتة عن فخذيها بينما هي تتحرك ، فشهق احمد شهقة خافتة ، وقال :

« يا لها من بضاعة ! »

« انت تتكلم كتاجر عتيق » .

« كل شيء في العالم بضاعة لها ثمن » .

« انت بضاعة من النوع الرديء » .

« وانت جبان ، تخاف من شيء ما . الحقيقة سكين فولاذيـــة ، حين تنفذ الى صميم قلبك ستبصر وانت تتألم وجه الارض الحقيقي » .

« المرأة ستظل مخلوقاً جميلاً » .

« كن رجلاً واترك ثدي امك » .

« انظر الى جارتنا . انها كالقطة » .

« القطة لئيمة جداً » .

« ولكنها وديعة جداً » .

« الكلاب افضل من القطط » .

« اذهب واعشق كلبة » .

« انظر انظر . اشرقت الشمس » .

وكان الثوب في تلك اللحظة قد ازداد انحساره عن فخدي صاحبـــة البيت ، فتبدّتا عاريتين شديدتي البياض، تتوهجان بشكل ساحر تحت الشمس ، وتبللهما قطرات من الماء . ومسحت صاحبة البيت يديها المبلولتين بثوب جاف ، وازاحت عن عينيها خصلة شعر سوداء ، ثم غمست يديها ثانية في ماء الطبق ، ولم تحاول ان تغطي فخديها بالثوب .

« انظر انظر الى وجهها ، انها تبتسم » .

« انها تعرف اننا نراقبها » .

« سنهجم على غرفتها في الليل » .

« سنجدها نائمة » .

« سنربط فمها بقطعة قماش » .

« سنحرم من تقبيل فمها » .

« سنضحي بجزء كي نفوز باجزاء اخرى اكثر اهمية . هكذا هي الحياة » .

« سنوثقها بحبل » .

« ستكون كالميتة » .

« ولكن لحمها سيظل ساخناً » .

« من سيكون الاول ؟ »

« انا » .

« لا . انا الاول » .

« سنهجم معاً نحن الاثنين »

« ستكون معركة » .

« معركة تاريخية »

« تاريخية ؟ لماذا ؟ »

« سنمزق ثيابها » .

« واذا نزعت ثيابها دون مقاومة ؟ »

« لن نقبل . انهـــا غنيمة حرب . ونحن احرار في افعالنا » .

« تفو » .

« قد تشكونا » .

« لتذهب الى الجحيم » .

« قد نهان في المحكمة » .

« قل للقاضي بجسارة : هل تحيا امرأة سعيدة دون رجل ؟ » .

« سنقول له : نحن نريد منح السعادة لغيرنا » .

« سيمنحنا القابا فخمة واوسمة » .

« فلتسقط الالقاب والاوسمة » .

« قد نسجن » .

« ستتمتع في السجن بالطمأنينة . وسنحس هناك اننا نحيا فوق ارض صلبة . وسيكون لنا مطلب واحد فقط هو الخروج من السجن » .

« من يدري ؟ قد يعجبها عملنا وعندئذ ستتعبنا كل ليلة » .

« اهلا بالتعب » .

« ستكون شحاذة » .

« كلنا شحاذون » .

« انا جائع وبودّي لو اكون شحاذاً واطلب من جارتنا ان تطعمني من مربى السفرجل الذي صنعته قبل ايام . اتذكر لونه الخمري ؟ »

« اسكت . انظر » .

ونهضت صاحبة البيت في تلك اللحظة، وحملت الطبق الذي تكومت فيه الثياب المغسولة.

« ليت ثيابها كثيرة » .

« هل تريد ان تغسل الثياب حتى تموت ؟ »

وابتعد الصديقان عن النافذة ، وابتدأ يرتديان ملابسهما . وحين انتهيا طرق احمد باب الغرفة عدة طرقات تعلن ان ثمة رجلا يوشك على الخروج فعلى نساء البيت الاختباء .

وخرج الصديقان من البيت ، وسارا صامتين في الشارع . ولاحظا امرأة جميلة الجسد والوجه تقف بارتباك قرب شجرة . فتوقفا عن السير ، وطفقا يراقبانها دون ان يتبادلا كلمة . وتزايد ارتباك المرأة ، ولم تمض سوى هنيهات حتى وقفت سيارة بجذاء الرصيف ، وكان يجلس وراء مقودها شاب وسيم الوجه انيق الثياب . فتح باب السيارة للمرأة التي تخلصت من ارتباكها وتألق وجهها فرحاً ، وصعدت الى جوف السيارة التي ما لبث ان هدر محركها وابتعدت مسرعة .

وتبادل الصديقان النظرات دونما كلمة . واكتأب وجهاهما . وتساءل احمد :

« الى اين نذهب ؟ »

وانسابت في مخيلة عصام الشوارع والمقاهي ودور السينما . وبدا له ان العالم قفص قضبانه من فولاذ ، ولم يجد كلمة يقولها .

وسار الصديقان صامتين . وضحك احمد على حين غرة وقال متسائلا :

« هل الارض كروية ؟ »

« انها ليست كروية » .

« بل هي كروية » .

« انها كروية بالفعل » .

« لا . انها ليست كروية » .

وصمتا من جديد . وانحدرا الى الشوارع الحافلة بالضجيج . ودلفا الى مطعم صغير ، واكلا برتابة ثم قصدا مقهى اعتادا التردد اليه ، واحتسيا الشاي ولعبا الورق متحمسين ، فخسر عصام . ثم عادا الى الغرفة بينما الشمس توشك ان تأفل . واستلقيا متجاورين على السرير . وظل السرير الآخر فارغاً .